تحرير جيل من الوهم ...

بقلم محيي الدين محمد

- ٣ -
التكرار والظروف والبيئة : (١)

الذين يؤثرون في حياتك طفلا ، هم الوالدان ، والمدرسون ، والاصدقاء، ثم مجموعة القوانين الالية في المجتمع ، ثم هي بعد ذلك الظروف الخاصة التي تحيا ضمنها وتعيش ..

لم تكن في طفولتك مشاكسا او عنيدا ، بل كنت تقبل النصائح والهداية ، لان ذلك فقط ما يمنع عنك العقاب والتعذيب . وها انت ذا تصطدم اول ما تصطدم بوالديك : يقهران رغباتك ، ويصلحان من شانك بالتدليل والترهيب ، ثم ها انتذا تسجل في المدرسة الابتدائية فتغزو عالما جديدا مؤلفا من اساتذة مصلحين ذوي شان ..

لو اتينا بجمع من القردة الراقية ، واخذنا نعلمهم على اساس مجموعة من الاكاذيب ، كان نطلق على اللون الاحمر صفة ازرق وان نقول عن الارض سماء ، وعن السماء ارضا ، وان نسجل اسم الثعبان على انه اخطبوط .. وهكذا لو ظللنا نكرر في اذهانهم ذلك دوما ، فسوف يصبحون مؤمنين بهذه الاكاذيب على انها حقائق اكيدة . وقد كان « باسكال » اول من نبه على التكرار ، واهميته في تركيز الايمان بل وخلقه احيانا . فهو يخبرنا بان صلاة الاحد ، وابتهالات المساء ، ورش الماء المقدس ، وقضم الخبز الالهي ، وتقبيل الصليب وحمله.. كل هذه الافعال تؤدي الى تاكيد الايمان وتثبيته ..

والمجتمع الذي نحيا فيه عبارة عن عادات مكررة ورياضية . فانت تسأل صديقا لك : كيف الحال ؟ فيرد عليك بدون تفكير : الحمدلله !. صحيح ... لقد كانت تثور مشكلة ، لو اتبع صديقك واقع سؤالك ، فاخذ يقص لك عن مشاكله وتعاساته وان البقال يطالبه بجنيهين وان سامية مريضة بالحصبة ، وان ، وان .. ولكنه صحيح ان النفاق الاجتماعي هنا اعلى منك ومنه ، ولذلك ، ولانك تفترض جوابه مسبقا ، فانت ترميه بهذا السؤال ، وتتأهب للجري بعده .. وكان احرى بك ان تسأل : كيف الحال ؟ وترد انت ايضا : الحمد لله ... ان معظم تفكيرنا وسلوكنا في هذا المجتمع يبدأ بهذه العادة المتكررة ، وينتهي بها . الملابس التي نرتديها . زيارة القبور والاضرحة . افراحنا . مآتمنا . ليالي سعدنا ... كلها تفصح عن وجه نفاقنا ، وايثارنا السلامة بالانغمار في مستنقع الاجتماعية الاسن (*) .

التغيير ليس معناه ان نلفظ هذه العادات ، لان هناك نوعين منها : الاول غير ضار ، وهو العادات التي وضعها المجتمع لاختزال الوقت ، او لغرض اخر سليم في الظاهر ، وسخيف في الباطن . اما العادات الضارة فكثيرة ومتحجرة لانها ما زالت تعيش في قرننا العشرين بملامحها القديمة المتعفنة ، وفي ريفنا مئات منها تعطل وجود الفلاح ، وتغمسه في المتكرر والممجوج : الزار . زيارة الاضرحة . الايمان بقدرة الاولياء والمشايخ .. العادة الفرعونية القديمة التي تطورت من وضع الخبز والفطائر في تابوت الميت ، الى تقديمها للفقراء ومتعهدي الدفن . وان رفضنا لهذه العادات ليس بذي قيمة ، لاننا سوف نخترع عادات اخرى تحل بدلها ، والمشكلة اساسا قهر هذه الروح البدائية واللاعقلية التي نحيا بها ..

انك تعيش في صندوق مقفل مليء بالاشارات ، فكما ان حدائقنا وطرقاتنا متخمة بالانذارات التي تعلن دوما : ممنوع قطف الازهار . الجلوس على الخضرة ممنوع . استعمال البوق ممنوع . قف عند ظهور الضوء الاحمر ، فان الصندوق الذي تحيا بداخله ممتلىء للغاية بمثل هذه اللافتات ، بل ان الدين نفسه يحمل هذه الروح : لا تمش في الارض مرحا ، لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى . لا تركنوا الى الذين ظلموا . لا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا : فالمفروض انك طفل مفسد لا تدري ما تفعل ، ولكن يكون قدومك الى العالم غير مخالف لقدوم اي طفل اخر ، وضعت لك قوائم وقوائم من الارشادات والنصائح لكي تطاطىء رأسك ، وترضخ لها : لقد اتيت الى عالم لا تملكه ، فالتزم اذن بالقواعد الموضوعة ..

انك لست قردا محشوا بالاكاذيب ، والفرق بينك وبينه ، هو انعدام فرصته في معرفة الحقيقة ، لانه ما زال ، بالرغم من انه يستعمل الشوكة والسكين ، وبالرغم من انه يستطيع ان يغني « تخونوه » لعبد الحليم حافظ ، عندما يشير اليه حارسه بذلك (١) .. بالرغم من كل هذا ، يظل حيوانا لا يستطيع التفرقة بين الصحيح والزائف . اما انت ، فاذا وضعناك في عالم محشو بالاكاذيب ، فما زلت تملك امكانية عظمى بكشف ذلك ، وميزتك الرئيسية هي منطقك ، ولا شيء سواه . وجميع الاكتشافات الكونية عن قانون التجاذب المغناطيسي بين الاجرام ، ونظرية النسبية العامة والخاصة ، ودوران الارض وكرويتها ، هي اكتشافات للاكاذيب التي كان يحيا بها البشر السابقون ، لان المكتشفين

---

(١) مقدمة اصبحت ضرورية : العادة فقط تدفعك الى مقاومة الافكار الجديدة .. اذن ، نحن نخدعك بان نجعلك تسلم بمقدمات معروفة وتقليدية ، لنصل بك الى تلك الافكار الجديدة . والخداع ظاهرة اسلوبية وحسب ، وليس كامنا في الافكار ذاتها .. وعلى كل حال ، انت تملك عقلا منفصلا يمكن ان يناقش ويكشف ، ويكفينا ان نثير الاسئلة .. واذا كانت طريقة العرض غريبة عليك ، لانها تبدو غير علمية ، فتذكر ان عبور نهر ما ، قد يحدث بقارب او بجسر او بالسباحة فهناك الف طريقة للوصول الى حقيقة شيء .. وهذه الطريقة هي احدى الطرق للوصول الى هدف محدد ..

(*) هناك اجتماعيتان : الاولى هي اجتماعية الغريزة والمصلحة ، والثانية هي اجتماعية التعود ، وهو ما نقصد اليه ..

(١) ليست تنغيمات الكلمات هي المهمة . والمهم ان هذا الحيوان يهمهم باللحن الاساس .

استعملوا منطقهم ، ولم يستعملوا خضوعهم للاكذوبة ..

وهكذا فان المنطق يظل الكاشف الوحيد للكذب والتلفيق .

ولكنك لا تستعمل المنطق ابدا ... فلماذا .؟

قلنا ان تكرار شيء معين ، يثبت في وعيك صحة هذا الشيء ولو كان اكذوبة مفضوحة .. ولكننا نسينا ان نخبرك ايضا ان لعمومية الاعتقاد دخلا كبيرا في ايمانك ..

فلو كنت متخما بالاكاذيب ، ولقيت فرصة مناقشة احد احرار التفكير ، فقد يتزعزع ايمانك ، وقد نشك في ان عدم استخدامك للمنطق هو الدافع لك على الايمان ، والتحمس لما تؤمن به .. اما في مجتمعك ، فانت لا تعرف احدا يمكن ان تطلق عليه صفة (حر التفكير). فالمجموع مساق كله الى الاعتراف باستشهاد وحيد ، والى الايمان بقضية فريدة ، الايمان بذلك حتى التضحية بالنفس . في المدرسة، وفي البيت . في الشارع . الكتب التي تقراها .. الافلام التي تراها . اصدقاءك الاعزاء . اضف الى ذلك الراديو والمجلات والجرائد والكتب المصورة ، والدعاء الضميري المشع نورانية من الكتاب المقدس . والحس العاطفي القديم فيك ، بضرورة الاعتراف بقوة عادلة ترى الظلم وتحكم بالعدل وتؤمن بالنظام . كل ذلك يدفعك دفعا نحو التسليم بدون قيد ولا شرط ... ثم .. من انت حتى تناقش بنفسك ، ما يؤمن به الجميع .؟! وهكذا تدفن رويدا رويدا ، وبتأثير ملايين الخلايا الدقيقة، اعجوبة الاعاجيب التي تحملها في رأسك والتي اسمها العقل .

انت تعمل في شركة الاستيرن المتحدة ، او في وزارة الصحة العمومية: تذهب في الصباح حاملا تحت ابطك جريدة الاهرام او الجمهورية ، وتوقع باسمك في كشف الحضور ، ثم تذهب الى مكتبك ، وتلقي على زملائك اربعين « صباح الخير ، والسلام عليكم » في بسمة بعرض وجهك ، وتجلس على مكتبك ، وتطلب قهوة بدون سكر ، او زيادة .. وتاخذ في تصفح الاخبار : « جريمة قتل » يذهب ضحيتها .. ! «صعيدي يشترى وزارة الخارجية » .. هزيمة نادى الزمالك بستة اجوا .. » وفجاة تدب حركة هائلة في الحجرة : الجرائد تختفي والسجائر تموت ، والضحكات تختنق ، وتظهر الملفات واكوام الاوراق الهامة بقدرة قادر فوق المكاتب جميعا .. وتنحني الظهور فوق الاضابير ، وتتخذ الحجرة مظهر مكان العمل الحقيقي .. ذلك لان الساعي المكلف اطلق اشارة صامتة بان الباشكاتب او المدير في الطريق .. !

الخوف الذي ظهر في تصرفاتك هو خوف اجتماعي ، يختلف عن خوفك من عربة النقل المقبلة باسرع قوة . فهنا الخوف غريزي ، وانت تنعطف يمينا او يسارا لتحافظ على حياتك انت .. الخوف هنا منطقي تماما ، لانه يحمل امكانية القتل او التشوه . اما في مكتبك فالخوف الغريزي يتحول الى خوف مجتمعي ، اساسه لا منطقي . انه خوف بالعادة ...

يموت والد زميلك في المكتب وانت لم تره قبل ذلك ، بل لم تسمع ان لزميلك ابا حيا . وتتفقون على الذهاب الى المأتم . وفي المساء ترتدي زيا قاتما وربطة عنق سوداء ، وتصطنع وجها مثالما للغاية ، بل انك تكاد تبكي حقا . القرآن يتلى : ملامحك حزينة ، ولكنك من الداخل تحدث نفسك باشياء عجيبة ، مضحكة احيانا ، ومسلية احيانا : انظر الى المعمم الذي يقرأ ايات الله ، انه يتمايل بطريقة هزلية ، وتصعد بسمة انطباعات على شفتيك : ولكن .. حذار .. انت في مأتم . وسريعا ما تختفي البسمة ، ليحل مظهر الشقاء المجتمعي الذي حبسك في لحظة موت .. انت في الطريق الى المنزل فتجد زحاما هائلا حول ترام جامد ، والفضول يدفعك ، واذا بجثة طفل ميت ترنو اليك من بين عجلات الترام .. وتصاب بالالم حتى امعائك : تريد ان تفعل شيئا سريعا ، كما لو كان عليك ان تنقذه ، ان تحمله بين يديك، ان تغطيه، وتغطي الجريمة التي حدثت.. بل ان ترد عنه الموت..

انت هنا من داخل ومن خارج، مكون من سلوك موحد بازاء مظهر خارجي. وما من تناقض في ظاهرك وباطنك كما حدث في المأتم .. انك هنا منضو تماما الى موقف .. في المأتم انت حزين اجتماعيا ، وفي الحادث انت حزين تلقائيا . الحزن الاول لا منطقي ، انه مظاهرة . والحزن الاخر منطقي ، لانه حقيقي ، ونتيجة للانطباع ..

الخوف والحزن والسرور والفرح ، وجميع العواطف التي نحيا بها ، لها وجهان : احدهما الوجه الزائف ، وهو عملة مجتمعية ، والاخر هو الوجه الحقيقي ، بتأثير شفافيتنا وبراءتنا ..

المجتمع يصنع لك هذه العواطف، لان وقته لا يتسع للتعبير الحقيقي، بل ان الاخلاق ذاتها تتشكل مع رغبة المجتمع ، لتصبح اخلاقا من اجل المجموع . من اجل الافلال من الشخصية والتفرد ..

وها انت ذا تطيع هذه الاخلاق ، فتخاف وتحب وتكره اشياء لاصلة لك بها ، لان المجتمع يخافها او يحبها او يكرهها ، بسبب او بدون سبب.

خوفنا الاجتماعي من الصواعق والزلازل والفيضانات يخالف خوفنا الاجتماعي من اظهار اي تصرف يخالف المجموع : هناك خوف لفائدة . وهنا خوف من اجل لا شيء ..

نصف القيم في المجتمع موجودة اصلا لقهر روح التفرد والشخصية فيك ، وصحيح ان هذا القهر ليس عملية ارادية منظمة من المجتمع ، اذ هو اتفاق مصطلحي ، لئلا يفقد النصف الاخر من القيم خصائصه بالنسبة للمجتمع نفسه . فاذا رفضنا العادة كلية ، فذلك يعني اننا سوف نبدأ كل شيء من جديد ، ولن نقنع بالتجارب التي افني فيها بعض الناس اعمارهم . سوف نرفض تصديق ان في الشرق الاقصى بلدا اسمه الصين ، وسوف نعترض على دوران الارض ، ونسخر بمن يصر على ان النار المطفأة تتحول الى حرارة. سوف نرفض كل شيء لنعيد بناءه من داخلنا ، وباقتناع شخصي وعيني وجسدي الى النهاية . ولن يكفيك عمرك كله للايمان بعشر قضايا ، اذ سوف تحمل متاعك وتذهب ، بدون ارشاد لكي تؤمن بوجود الصين ، وتراها بنفسك ، وسوف تحاول اقامة الادلة وحدك على دوران الارض ، وهكذا ..

واذن ، فمن اجل خاطر القيم الحسنة في المجتمع ، نوافق على وجود القيم السيئة فيه ، لان محاولة فصل الحسن عن السيء ، سوف يعيد الينا فرصة مناقشة ما هو حسن ايضا لتفتيته والحكم عليه . ولما كانت هذه المسالة دقيقة وتتطلب قدرة وحكمة وقوة وعصبية وذكاء حادا للغاية ، فقد انتهى الناس باتفاق متبادل الى التجاوز عنها والقناعة بسلوك يرضى القيم الحسنة والسيئة ، ويرضى المجتمع وعلى مر السنوات ، يرضيهم هم ايضا ..

انت تولد بالمعادفة . بمحض المصادفة . بل ان ملامحك ذاتها واقعة تحت هذا التاثير ، والمصادفة هنا تعني الضرورة ولا تعني الجبر . فسلسلة الظروف الحادثة التي اقنعت جد اجدادك الاكبر بالزواج بدل ان ينتحر ، هي العامل الذي سوف يتحكم في وجودك انت بعد عشرة اجيال كبيرة ، بل ان هذا الجد ، والذي هو سبب مباشر لحياتك ، لا يعرف ولن يعرف ان في الدنيا مخلوقا يحمل ملامحك يدين بوجوده له ..

الارض التي وجد فوقها جدك ، ووضعه الاجتماعي ، ودرجة صلابته الجسدية ، والعيوب الفسيولوجية التي يحملها ، ولون بشرته .. كل ذلك ينفذ اليك من خلال الاجيال ، كما ينفذ ماء المطر من السقف المنخـــوب ....

وفي يوم ما ، وليكن في الحادي عشر من يوليو عام ١٩٢٨ ، تفتح عينيك على عالم من عيون تتأملك .. وها انتذا تضاف الى القائمة ، وتصبح انسانا .. انت تجهل لماذا كان انفك مستقيما كماسورة بندقية ، وتجهل سر شعورك المجعد ، وتجهل سر الفلقة الغائصة اسفل ذقنك ، وانت تعيش بكل هذه الخصائص المطوية لانها انت ، من داخل ، ومن خارج ...

لو كانت السلسلة الاجتماعية لاسرتك ، موجودة في الملايو بدل ان تكون في اقليم مصر ، لتغيرت اشياء كثيرة فيك انت . كنت تصير اسمر اللون ، منحرف العينين قليلا ، اسود الشعر لامعه ، قصير القامة ، صاحب ابتسامة جذابة للغاية ..

لو كان وضع السلسلة الاجتماعية لاسرتك مرتفعا ، بدل ان يكون في العمومية ، لكنت الان حائزا علـــى اجازة الكيمياء من ليفـــركاوزن وتملك عربة (جاجوار ١٩٦١) ، وتقضي الصيف كسومرست علـــى الريفييرا ، بعيدا عن الصيف الافريقي القائظ ..

لو كانت السلسلة الاجتماعية لاسرتك قوية البنية ، بدل هذا الضعف البادي عليك ، لكنت الان لا تشكو من شيء ، لطال عمرك عشرين عامـا اكثر مما هو ضروري لجسدك المحطم .. ولكنت وفرت عشرات الجنيهات المتحولة الى جيب طبيبك وصيدليك .

وهكذا .. كل شيء في الارض والسماء موجود من اجل فـــرض نظامه عليك وعلى ابنائك ، وابناء ابنائك، كل شيء يبدو كما لو كان معدا منذ البداية ، بل ان اكتشاف النار والعجلة والحديد ، وطاقة النار ، والكهرباء والانفلاق النووي ، كان ضروريا في الازمنة ذاتها التي كشفت فيها .. ولم يكن ممكنا ابدا اكتشاف الطاقة الذرية قبل اكتشـاف الكهرباء ، اذ انها كلها سلسلة واحدة ، تمنح عطاء درجيا ومنظمـا الى اقصـى حـد ..

ضروري اذن ان تكون موجودا بنفس خلالك ووضعك ، بنفس القـوة العادمة التي تؤكد لا ضرورية ان توجد على الاطلاق ..

فالمصادفة هنا تصبح قانونا ، لدرجة ان الحضارة البشرية لـــم تستطع اساغة ان البشر خاضعون للمصادفات ، فاخترعوا فكـرة الجبر، وان كل انسان موجود لانه مقدر له الوجود .. المصادفة هي قانـون وجودنا ، وقانون اندثارنا . قانون سعادتنا ، وقانون بلايانا ومصائبنا .. الى سن العشرين انت لست انت . كل شيء فيك هو ملك للتاريـخ. ملك لصمت الماضي .. ملك لاجدادك ووالديك : سحنتك . رغباتك . طواعيتك . الك . سعادتك . شكواك ورضاك .. كل ذلك مسخـر من اجل ان توافق على كونك استمرارا لاسرتك . ولكن السنوات العشرين تمر سريعا ، لتخضبك الحناء الغامقة التي اسمها التفكير ، وتعطيك لونا جديدا اساسه ان تحاول فرض شيء جديد عليك ، اساسه ان تجعل لهذه الملامح التي كانت اسيرة الظروف ، قوة خاصة . ان تعطي لذراعك طولا جديدا ، ان تمد بصرك خارج الاسوار المعطاة لك .. ان تكون انت ، بدل ان تكون هو في صورة انت ..

واذن ، فانت ـ في هذا النزوع لفرض اناك ـ تحاول ان تقف مـن المجتمع ومن الاخرين موقفا معينا ، لنلاحظ ان المجتمع لا يرحب بذلك ، اذ ان في هذا السلوك محاولة منك لتهزيمه وسحقه .. والمجتمع بالطبع اكبر منك واكبر من ارادتك ، اذ ان من يحميه ويسند ظهره هو الدولـة بكل سلطانها المادي والعسكري والبوليسي والتشريعي والقضائي ..

انت لا تستطيع مواجهة هذه القوة الباطشة ، واذن فانت تجعل معركتك قدرا شخصيا : تنتحر . تتصوف . تجبن او تخوض المعركة وحدك ، يعني ان تنتحر بايدي الاخرين ..

وهناك حلول اخرى تدخل تحت احدى هذه الاطر الاساسية ، اذ يمكنك ان تتحول الى معافرة الخمر ، او ادمان المخدرات ، او السرقة او التحايل ، او مجرد الجلوس على المقاهي وملاحظة العالم مـن خارج .. وهي الحلول التي يجربها ايضا مثقفون في الشرق العربي ، لانهم لم يبلغوا في حدة الاحساس بالالم ، مبلغ مثقفي الغرب الذيـن يختارون الانتحار الجسدي والفكري ، ويتحولون الى الرهبنة ورفض الواقع ، وحدة الغرب راجعة بالطبع الى اختلاف الظروف المعيشيـة والى تفوقهم من حيث الالة والتكنولوجيا . اي ان المأساة فيالغرب هي مأساة كثرة القيم وتضاربها ، في حين ان المأساة في الشرق هـي فصور القيم عن ان تعطي جوابا عصريا ..

بيد ان مصيرا واحدا ومشتركا يربط بين الاثنين . مصيرا موحـد الزي والملامح ، هو هذه الرغبة الحرى بالانتقال من الحلم الـــى الحقيقة . من خدر الهروب الى دغدغة الالم والصراع ..

تختلف وسائل الشرقي والغربي في مواجهة المجتمع ، وذلك لان ظروفهم مغايرة لظروفنا ، وفهمهم مخالف لفهمنا ، على انه حيث يكون الفرار ، يتفقون معنا في نوعيته ، فحيث نوافق نحن على احلام اليقظة والنرد ، والطاولة ، والمخدرات .. يوافقون هم على ذلك مضافا اليه مذاهب الفن الغربية كالدادائية والسيريالية والتكعيبية والوحشيـة ، والوجودية الزائفة « اي المفهوم الخاص لها .. » ، ويتحولون الى المضاجعة الشاذة ، وسباق السيارات بحذاء المهاوي السحيقة، واكتشاف ان قوة الحياة ليست الا في اتيان الاثم ، وصفع الاخلاق القديمة فوق قفاها ... والمذاهب الغربية تنتشر في اوروبا وامريكا ، لنفس الاسباب التي ينتشر بها الحشيش في بلادنا : توحد الفرد وضياعه بازاء القيـم السكونية للمجتمع والاخلاق والدين ..

فعندما يريد العصر ، عندما تود قوة التطور التي تجيش في قلوب الشبيبة ان تنبيء عن مدفقها وعن لامبالاتها بالقيم الموضوعة سابقا فـي المجتمع ، ورفضها للحل الديني الذي ينفي طبيعة الانسان ، فـي حـين ان الشاب لم يكد يمارس هذه الطبيعة ، تظهر رقصات « الروك اند رول» وموسيقى « البلوز » و « التشاتشا » ، والمذاهب الكثيرة التي يعنيها في الاساس ان تقاوم خلال المجتمع الموضوعة ، وتتحدى الاخلاق القديمة.

وكما ينبيء ـ على تخوم الصحراء ـ فرار العصافير الدورية المرتعشة الاجنحة ، عن قدوم هبوب عنيف ، تنبيء هذه الحركات اللا اخلاقية عن فشل حضارة وعن قرب تقويضها ..

فهكذا حدث لبومبي وسدوم وعامورة ، وروما القديمة ..

لا يمكنك ان تواجه قوة الدولة لانك وحيد ، ولن يكون جوابك علـى العموم الا الرضى بالدخول في الانشوطة ، ومجاراة القيم والاخلاق المرصودة لك ، على ان تكتب بغية فواك في المسرات القليلة التي خلقها لك المجتمع ،من مقاه واغان وصداقات وسينما ودعارة ..

فقد كان المفروض لنهرك ان يصب في هذا البحر ..

النماذج المقاومة تفحص العالم ، وتنقب عن النظريات والاجوبـة

والحلول التي تعطي للفرد ماله ، وتعطي ما للمجتمع له .. ، وهي توافق على ان تعارض السلطة ، وتعارض الذهن العام والانقياد ، وتوافق على ان تقدم بجسدها لتشفى وتحرق وتهان في سبيل ان يكون لها من الحرية ومن الوجود ما يفرضه تفردها ووعيها ..

السلطة ومن ورائها المجتمع لا تعترف بالمناقشة ، وافساح المجال للتفكير والمعارضة ، فوقتها لا يتسع لذلك : ان مشاكلها الخاصة والعامة لا تستطيع انتظار النقاش والبلبلة الحادثة ، واذن فلا بد من مقاومة هذا الجيل المرتد ، ومحاولة اصلاحه بقوانين سريعه .

التجمعات ممنوعة بامر القانون . كل كلمة تنشر ضد السلطة يوقع عليها الجزاء . معارضة السلطة جزاؤها السجن .. وهكذا ، تستمر السلطة في فرض الحظر على جيل باسره ، لانه لا يسعها الا ان تفعل ذلك لمصلحها الخاصة : كمن يتناول فرصين من الاسبرين كل مساء للقضاء على صداع ابدي . الاسبرين يقضي على الصداع الذي هو مظهر في حين يظل السرطان مستمرا ، وفي حين تظل البؤرة المجرثمة توالي فرز سمومها وتوزيعها على الجسد ..

لا تمنع قوانين الاعدام من تدخين الحشيش ، ومن الدعارة الخلقية . ليس ذلك لان عادة التدخين اقوى من الزغبة في الحياة ، او اشد حلاوة لدرجة ان المدمن مستعد ليفقد حياته في سبيلها .. ان المشكلة ليست في القضاء على طاقة ، بقدر ما هي في تحويلها ! وتدخين الحشيش ليس الا مظهرا من مظاهر نضوب حضارة ، كما هو الانهيار الاخلاقي نفسه ...

اذن ، كيف يمكن ان نأمر بالتماسك ، بناء متصدعا ينهار .؟ ان الطاقة التي تصرف في الدعارة الاخلاقية لها سبب ، ولن يمكن القضاء على هذه الدعوة الى نبذ الاخلاق الا بالوصول الى هذا السبب الاساسي وايجاد الجواب له ..

ان النماذج المقاومة تحتقر جسدها ، التي يمكن للسلطة ان تمتلكه وان تمعن فيه تنكيلا وتمزيقا ، وتثبت للاخرين ـ الموافقين ـ ان الشرف ليس الا بطولة المواجهة ، وعنف المجابهة ، وفوة الفكرة ، وشدة الارادة .

فهكذا كان سقراط ، وكان جاليليو ، وكان اخناتون ، وكان محمد ..

لقد كانت تصرفاتهم ، وكان سلوكهم واعيا اولا ، ثم تلقائيا ، ونابعا من هذا الوعي بالذات ، ولم تكن ضمائرهم لتوافق مطلقا على خيانة اكتشافهم ، مهما كان الثمن عظيما ..

هذه الخلال والمثل الاخلاقية التي للثوار العظام ، والتي تجعلنا نذكر اسماءهم ونحفر تماثيلهم ، ونعني قضاياهم ، كان يمكن ان تصبح خلال البشر جميعا ، لو لم يكن الكسل والجمود وحب الامان الاجتماعي مزروعا في قلوب الناس ..

البطل ليس شيئا مختلفا عنك : انت يا من لا تفكر في البطولة او الاخلاق او الارادة . انه يحقق وجوده ، في حين ترفض انت ذلك ، وتحقق وجودا عموميا ، يقهر فيك البطولة ، ويعلي من شان الامان وطواعية العادة ، والخضوع للتكرر والمعروف والمنوه به ..

البطل هو الانسان الذي يقول : لا ، في حين تصر ظروفه على ان تدفعه الى قول : نعم !. البطل هو الانسان الحر الذي يقاوم جبرية العقيدة ، وجبرية العصر ، وجبرية التقاليد .

انت لست بطلا ، لانك لست حرا بعد ، لان تكرار التقاليد والظروف والوسط ، يخلق منك الانسان النمط ، الذي يتحاشى ان يظهر امكانياته، ويعيش ويموت في التكرر ..

قلنا قبل ذلك ان ظروفك اكبر منك لانها تقهرك ، ونقول الان ، ان البطل هو الذي يقول لا ، بالرغم من ظروفه التي تدفعه الى قول نعم .. فما سبب هذا التناقض .؟ اولا ، ليس هناك من تناقض ، لان الاتفاق النوعي موجود في النص فقط ، اي في لا ونعم ، والتناقض بالطبع لا يحدث الا بين نوعيات متشابهة في اكثر من عنصر ، فلا يصح ان نقول ان السيجارة مناقضة للبحر الابيض المتوسط ، لان لاشيء يربط بين الاثنين ، في حين يصح ان نقول ان الابيض مناقض للاسود ، لان ظاهرة اللون تجمع بينهما ..

اذن فالتناقض موجود في الجواب : لا ، ونعم ، وليس موجودا بين البطل ، والانسان النمطي ، لان الاختلاف بينهما رهن بوجود احدهما في حالة ، وثانيا ، لان الانموذج النمطي يمكنه ان يصبح بطلا .. في حين يستحيل ان يتحول الجليد الى نار ...

ومن جهة اخرى ـ اخلاقيا ـ ليس ما يمنع الانموذج النمطي من قول : لا ، الا كلفه الشخصي بالسكون ، والخضوع لعادات المجتمع ، التي تبدو له اكبر منه .. وهكذا .. فهل تستطيع انت ان تقول.. لا ؟

قبل ان تخوض هذه التجربة ، لا بد من كشف مطالبك الاساسية في وجودك ، لتعرف على اية ارض انت تقف ..

وليست مطالبك كثيرة الى درجة خيالية تمنعك عن التفكير بها على مستوى جدي وواقعي ، اذ انها تتلخص في حريتك واحساسك بالعدالة ، واتاحة الفرصة لك في الحياة كاي فرد يعيش ويتنفس مثلك ..

لقد ظهر لك ان العادة والمعتقدات والتكرار والظروف والبيئة ، تسهم مجتمعة في فصلك عن ارادتك وكيانك الحقيقي .. ولكن .. اين انت.؟ اين انت الاصيل ؟ اين انت الحقيقي .؟!!

ان كل العناصر التي ذكرناها قد اخفت ملامحك الشخصية وطلمستها، فهل ستظل كذلك الى الابد ؟.

كلا .. ، لان هناك شيئا كامنا فيك ، يمكنه ان يظهر وجهك من هذا الطلاء الاسود العام الذي يظهرك بمظهر كاذب .

ان هناك قوتك المدخرة الخاصة ، وهي كفيلة بان تحقق لك وجودا جديدا رائعا .. هل انت مستعد للقيام بمغامرة ، نتائجها القاطعة في صفك انت وحدك ، وما سميت مغامرة الا لان جزءا صغيرا فيك ينكرها .؟!

لقد اجاب الغرب على هذا السؤال مئات المرات . يبدو ان اجوبته الكبرى معروفة تماما ، هي : اخلاق اليونان القديمة . المسيحية . العلم . الماركسية . العودة الى الذات .

فقبل ان نخوض ازمة الجواب الغربي مناقشين له ، نريدك ان تعلم اولا ماهية مطالبك الرئيسية ، كعربي بدات فيه الان حركة التنفس والنبض والتعبير .. « يتبع »

القاهـرة — محيي الدين محمد

اقرأ الآن :

القلق في الثقافة

لمحمد الجنيدي

اول دراسة من نوعها في العربية تشرح دوافع القلق في الفكر العالمي والعربي

منشورات عويدات ـ بيروت